وفي اعتقادنا ان هذا كله تم نتيجة لشعور معظم الاطراف المعنية، ان لم يكن كلها، بأن الطريق أمامها باتت مسدودة (ولا نعني بالطبع ان الطريق بالمطلق هي المسدودة، بل ان الطرق التي اختطتها منظمات المقاومة، كل لنفسها، هي التي باتت كذلك) وان حمى النشاط المفاجيء هذه ليست الا من قبيل اثبات ' نحن هنا ' ، ولذلك يبدو انه لن يمر وقت طويل الا وتعود الاوضاع الى ما كانت عليه، وكأنه لم تكن هنالك ' حوارات ' ولا ' وحدة ' ولا يحزنون» (ص ٥).

نسأل: هل ما حدث هو، فعلاً، بلا فائدة بل ضار، كما يقول الكاتب ؟ أغلب الظن ان ما توقعه جريس من عودة سريعة للامور الى ما كانت عليه ليس أكثر من أمنية ورغبة شخصية. واذا كانت الاشياء «مقمطة بنواميسها»، كما يقول الاقدمون، فان مقالة جريس «الراهنة» «مقمطة»، هي الاخرى، بمقالتين سابقتين وضعهما الكاتب في مرحلة سابقة كان عنوانهما الرئيس بمثابة حكمة جريس وقوله المأثور، ونعني بذلك تقديس الانقسام وشرح فوائده والدعوة اليه، باعتباره خلاصاً مما أسماه وحدة الشلل. وحتى لا نظلم الكاتب، فاننا نستعير فقرة أرادها لشرح مقصده، ولكن نستعيرها من أجل شرح مقصدنا نحن شاكرين له، سلفاً، هذا الفضل. كتب جريس: «ويبدو كأن سنوات الانشقاق والقطيعة المنصرمة كانت دون فائدة من هذه الناحية. فلقد كان في الامكان، مثلاً، اعتماد أساليب أخرى أكثر تطوراً لادارة العمل الفلسطيني، مثل ' حكومة ' و ' معارضة ' او طريقة اتخاذ القرارات بالاكثرية ضمن الاطر الجبهوية. ولكن بدلاً من ذلك، يظهر جلياً ان الحديث حول ' التوحيد ' و ' الوحدة الوطنية ' والاصطفاف (اصطلاح جديد ؟) الوطني يدور كله، ومن قبل الجميع، حول العودة الى نظام فلسطيني يسمى تجاوزاً ' ثورة ' وأساليب وانماط عمل لا تختلف كثيراً عن تلك التي عهدناها في الماضي وثبتت قلة نجاعتها» (ص ٧ ـ ٨).

هذا التوصيف لواقع فصائل المقاومة ومنظمة التحرير الفلسطينية يحمل لغة الهجاء وينتمي الى عالمه اكثر مما يحمل لغة التشخيص التي تنطلق عادة من همّ الرغبة في تجاوز النواقص وسد الثغرات، اذ انها اذ تشير الى الخلل، تنطلق، أساساً وقبل أي شيء آخر، من امكانية المعالجة، والا فان الذهاب الى برّ المعالجة لن يكون ممكناً في بحر الخراب المتلاطم، اذا كان الربان نفسه لا يرغب في رؤية الشاطىء أصلاً، ولا يستطيع. وازاء هذه المفاهيم للعمل الوطني، نقدر، ببساطة، ان نؤكد للكاتب ان الامور سوف تسير الى وراء كما يتوقع، اذ ان مفهوم العمل الوطني الفلسطيني لدى جريس، بصيغته المثالية، هو ذلك المفهوم القائم على وجود «حكومة» و «معارضة»، أي، بكلام آخر، فان الكاتب ينطلق في بحثه عن مثاله الصائب من أحقية ما في استبعاد الآخر، الذي يشكل وجوده ومشاركته في صنع القرار «كارثة» لا تحمد عقباها، ويمكن، بل ومن الضروري، تداركها. مثل هذه الدعوة ليست جديدة على واقع ساحتنا الفلسطينية، وان يكن الكاتب، هنا، يتمتع بدرجة عالية من الصراحة (ان لم نقل الفجاجة) التي تدفعه الى هجاء الواقع الذي سلّم بقبول غير «الحكوميين» في «حكومة» الثورة، الأمر الذي سوف تترتب عليه جملة من المصائب والنكسات التي سوف تحل بالشعب الفلسطيني وتدمر نضاله الراهن، وربما المستقبلي، جراء هذا التشارك وتلك التعددية، وجراء قبول «الحكوميين» باعتماد صيغة العمل المشترك، تلك التي يرى فيها جريس أصل الداء ومصدر كل الشرور.

ولأن الامور مقمطة بنواميسها، كما أسلفنا، فان من حق الكاتب علينا (وكذلك من حق القارىء قبله) ان نعلن دهشتنا واستغرابنا لهذه الصحوة النقدية المفاجئة التي هبطت على جريس غداة انعقاد الدورة الاخيرة للمجلس الوطني الفلسطيني وبعد ان انتهت مظاهر الانقسام. ومن حقنا، اذ نعلن دهشتنا، ان نسأل الكاتب: هل كان واقع العمل الوطني الفلسطيني على غير ما هو الآن يوم توقيع اتفاق ١١/٢/١٩٨٥ بين منظمة التحرير الفلسطينية والاردن مثلاً ؟ أيضاً: ألم تكن مؤسسات م.ت.ف. تعيش المواصفات التي أطلقها الكاتب في توصيفه لها؟ لماذا، اذاً، كان جريس راضياً، كل الرضى، عن واقع الحال ؟ ولماذا لم يكتب بمثل هذه الجرأة في هجاء أساليب العمل الوطني وفي وصف خراب المؤسسات الفلسطينية ؟

نقول هذا وقد هالتنا المقارنة بين الطمأنينة الشاملة التي نطقت بها كلمات الكاتب في مقالتيه السابقتين، وبين الفجيعة الكاملة التي تعلنها سطور مقالته الراهنة. لا نجد صعوبة تذكر في البحث عن سبب، والكاتب